الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

هل العولمة هي الاستعمار الجديد بدلاً من الإمبريالية الماضية ؟

أصبح الحديث عن العولمة في العالم العربي في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، أشبه ما يكون بالفزع الكبير الشامل. وكأنها مفاجأة سقطت على التاريخ من خارجه، أو قنبلة عظيمة الأثر أُلقيت في وسط العالم العربي، فانفجرت، وتناثرت شظاياها في كل مكان من العالم العربي، حتى الأمكنة التي لا تزال تعيش أنظمة القرون الوسطى سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً.

شاكر النابلسي
كاتب اردني - امريكا

الجديد في العولمة

والحديث عن العولمة في نهاية القرن العشرين يعتبر حديثاً جديداً. فقد قال انتوني جدينز Giddens في عام ١٩٩٨ أن مصطلح العولمة قبل عشر سنوات من هذا التاريخ لم يكن معروفاً في الغرب، في الأوساط الأكاديمية، أو في الأوساط الإعلامية. وأصبح بعد عشر سنوات من تاريخ ١٩٨٨ من مصطلح مجهول إلى مصطلح يتردد في كل مكان في المجالات السياسية، والاقتصادية، والأكاديمية، والإعلامية. في حين أن لا جديد في العولمة. فالعالم القديم في القرون السابقة كان متعولماً في ناحية أو أخرى، وخاصة العالم العربي والإسلامي. فكانت الثقافة العربية الإسلامية القديمة تمثل العولمة حيث كان العرب مركز العالم. والعالم الجديد في القرن العشرين وما بعده، ومنذ الحرب العالمية الثانية بدأ العولمة من حيث ندري ولا ندري عن طريق عدة مؤسسات عولمية اقتصادية منها البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ثم تبع ذلك اتفاقية "الجات GATT"، واتفاقية "منظمة التجارة الدولية WOT". فبأي معنى تُعد العولمة مرحلة جديدة وعهداً جديداً. ألم تنشأ الرأسمالية معولمة؟

أقسام العولمة

ويؤكد بعض الباحثين بأن العبرة ليست في قِدَم العولمة أو حداثتها، ولكن العَبرة في مدى تأثيرها. ومن هنا فهم يقسمون العولمة عموماً إلى قسمين رئيسيين:

١. عولمة رفيعة أو سطحية Thin Globalization. ومثالها طريق الحرير الذي كان سائراً من آسيا إلى أوربا عبر بلاد الشام التي كان يسيطر عليها مجموعة من التجار الأشداء. والتي كانت تمارس تجارة أُحادية وهي تجارة الحرير التي كانت السلعة النخبوية الخاصة. ومن هنا أُطلق على هذه العولمة عولمة محدودة.

٢. عولمة عميقة أو كثيفة Thick Globalization. وهي كل عولمة تضم عدة علاقات سواء كانت مكثفة أو غير مكثفة. ومثالها ما يجري اليوم في البورصات الدولية وأسواق المال العالمية. وتتميز العولمة الكثيفة عن العولمة الرفيعة بضخامة وكثافة شبكتها وبسرعتها الضوئية في نقل المعلومات، وبحجم المشاركة العالمية فيها.

من ناحية أخرى، يخلط بعض المثقفين بين مفهوم العولمة وبين مفهوم الانتفاع المتبادل Interde pendence. ويقولون بأن "العولمة الاقتصادية ما هي إلا تطوير لمفهوم التعاون المتبادل الذي ظهر في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين". في حين أن العولمة مفهوم يختلف عن التعاون المتبادل، كما أن المفهومين غير متناظرين وغير متطابقين وغير متماثلين. فكيوهان Keohane وناي Nye قالا بأن العولمة يمكن أن تكون نوعاً من التعاون المتبادل فيما لو اقتصرت العولمة على تبادل المنافع بين دولتين أو بين مظهرين في دول عدة. كما أن تبادل المنافع يشير إلى حالة معينة قائمة، وإلى دولة ذات مصالح. وتبادل المنافع من الممكن أن يزداد كما حصل في الحرب العالمية الثانية. ومن الممكن أن يضمحل أيضاً كما حصل قبل ذلك. ولكن العولمة من ناحية أخرى ذات مظهرين أساسيين:

الأول، أن العولمة شبكة علاقات عالمية وليست بين دولتين فقط. فالتعاون العسكري أو التعاون الاقتصادي بين أمريكا مثلاً واليابان يدخل في باب التعاون المتبادل وليس في باب العولمة. وفي هذه الحالة يُعتبر التعاون أياً كان بين أمريكا واليابان جزءاً من العولمة، ولكنها ليست العولمة بعينها.

الثاني، إن أي نشاط يُطلق عليه المرء نشاطاً عولمياً هو نشاط عالمي وليس نشاطاً إقليمياً. فالعولمة يجب أن تتم بين مجتمعات تفصلها مسافات سواء كانت هذه المسافات قريبة كحال كندا وأمريكا، أو كانت بعيدة كحال بريطانيا واستراليا.

اختلاف المفاهيم حسب العصور

على أن مفهوم العولمة يختلف من حقبة لأخرى، ومن عصر لآخر. فمفهوم العولمة اليوم يختلف عما كان عليه في القرن التاسع عشر. فالعولمة في القرن التاسع عشر كانت مفروضة فرضاً بفعل عامل الاستعمار الغربي. في حين أن العولمة اليوم هي مصالح متبادلة أكثر منها منافع لطرف واحد، كما كانت عليه العولمة في ظل استعمار القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وحتى غداة الحرب العالمية الثانية. وإن كان هذا لا ينفي أن العولمة تاريخ ممتد، وأنها حلقات متصلة كل حلقة تعود في مرجعيتها للأخرى. أي أن العولمة الحديثة تظل متميزة عن كل ما سبق. ولعل من أهم مميزاتها ما قاله توماس فريدمان عنها في كتابه "الليكسس وشجرة الزيتون" من أنها "أبعد أثراً، وأسرع خطوة، وأعمق تأثيراً، وأرخص تكلفة".

الاقتصاد هو البداية

بدأ تاريخ العولمة الحديث بالعولمة الاقتصادية، وبعضهم يرجع هذا التاريخ إلى الفترة الواقعة بين عام ١٨٥٠-١٩١٤، كما برزت العولمة الاقتصادية الحديثة بوضوح في الفترة الواقعة بين عام ١٩١٤-١٩٤٥، وهي الفترة التي ظهر فيها الاستعمار الغربي، وتدفقت رؤوس الأموال في أسواق البلدان المستق لة. كما ظهرت العولمة العسكرية الحديثة واضحة أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية. وكان ملاحظاً منذ عام ١٩١٣ أن أمريكا تخطط لإطلاق العولمة الاقتصادية وقيادتها، وذلك من خلال خطط وأفكار الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون (١٨٥٦-١٩٢٤) الذي كان أستاذاً للاقتصاد السياسي في جامعة برنستون ورئيساً لهذه الجامعة (١٩٠٢-١٩١٠) والذي أنشأ "هيئة التجارة الفيدرالية FTC" في عام ١٩١٤، وكان أول من أطلق دعوة سياسية واقتصادية لمفهوم العولمة الحديث بقيادة أمريكا بقوله: "بما أن التجارة لا تعرف حدوداً وطنية، وبما أن المصنع يريد من العالم أن يكون له سوق، فإن عَلَم أمريكا يجب أن يتبعه. وأن أبواب الأمم التي تُغلق في وجهه يجب أن تُخلع. وعلى وزراء الدولة أن يحموا الامتيازات المالية التي يحصل عليها رجال المال بغض النظر عن سيادة الأمم المناهضة".

العولمة شاغل العرب الشاغل

بعد حرب الخليج الثانية ١٩٩١، كان الحديث عن العولمة هو الشغل الشاغل لمنتديات الفكر العربي وللصحافة الفكرية العربية وللصحافة السياسية العربية. وكان الخوف من العولمة أكثر من التفكير فيها. والوهم منها أكثر من الحقيقة فيها.

وكما جاءت الحداثة في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين بزفة كبيرة، لم يبقَ شاعر أو كاتب أو صحافي إلا واشترك فيها ممن يعرفون، وممن لا يعرفون، وممن يعلمون وممن لا يعلمون، فقد جاءت العولمة كذلك في نهايات القرن العشرين. وكانت "زفة فكرية وثقافية" أخذت دور النشر والصحافة العربية والإعلام العربي الرسمي والخاص تساهم فيها، وتدعو جموع المثقفين إلى طرح أفكارهم وآرائهم، وتعقد لهم الندوات، وتنشر المجلدات التي تتحدث عن العولمة والخطر الداهم والوباء القادم. وغدت العولمة مادة مطلوبة بشدة للكتابة في الصحافة اليومية والشهرية والفصلية. وساهمت بذلك في تنشيط سوق النشر العربي الكاسد هذه الأيام - حيث لا قضايا مثيرة - كما سبق وساهمت العلْمانية والحداثة بذلك.

وكما جاءت العَلْمانية في منتصف النصف الثاني من القرن العشرين بزفة أخرى كبيرة، اشترك فيها القاصي، والداني، والدرويش، والمتفتح، والعالم، والجاهل، ودارت فيها معارك طاحنة بين أهل اليمين وأهل اليسار، وكُرست لها المجلدات أيضاً. وكانت كتبها تباع وتنافس كتب السحر، وعذاب القبر، والطبيخ، ومما لك الجان، فقد جاءت العولمة في نهايات القرن العشرين، وكانت زفة كبيرة أيضاً للثقافة والمثقفين، وحلت جزءاً من أزمة الكتاب العربي المستحكمة أيضاً.

وكما تحولت الحداثة والعلْمانية إلى شعارات سياسية خطابية براقة، تصلح لقيادة المظاهرات الشعبية الصاخبة، فقد كان مصير العولمة كذلك. ونحن كأمة مولعة بـ "سحر البيان" حتى في أعسر القضايا وأكثرها خطورة على حياتنا، فلا مانع لدينا من التخلي عن الحقيقة العلمية الصلبة مقابل سحر البيان والاستمتاع بلذته. ومن هنا تحولت العولمة إلى شعارات سياسية رومانسية، فيها من سحر البيان العربي المعتاد الشيء الكثير. في حين أن التحديات الجديدة تتطلب منا الابتعاد عن الشعارات الرومانسية. فكنا نسمع من مفكرين عرب وأكاديميين شعارات سياسية خطابية غير علمية في نهايات القرن العشرين، وصفت بأنها تعابير بديعة ومثيرة تقول: "العولمة هي الاسم الحركي للأمركة"، "العولمة علاقات دولية، تحكمها شريعة الغاب في عالم الغاب"، "العولمة مشروع أمريكي تدميري".. الخ.

ومثل هذه التعابير المجانية، لم يقلها حتى ألد أعداء العولمة في الغرب وفي أمريكا على وجه الخصوص، وعلى رأسهم قائدة مسيرة الاحتجاج والمعارضة للعولمة ولمنظمة التجارة الدولية WOT في سياتل في نوفمبر ١٩٩٩ لوري ولاش Wallach. بل إن ولاش في حديثها مع نعيم مواسيه Moisés محرر وناشر مجلة "السياسة الخارجية Foreign Policy"، كانت واقعية تماماً، وتتكلم من واقع التجارة العالمية ويومياتها، وليس من منطلقات ذهنية لم تعش تجاربها، ولم تمارس واقعها. فهي تتحدث عن تجارة السيارات بين أمريكا واليابان ومشاكل هذه التجارة. وهي تتحدث عن الجينز الصيني وتسويقه في أمريكا، ومشاكل هذه الصناعة في داخل الصين ورغبتها في تغيير ظروف إنتاج هذه السلعة، وهي تتحدث عن مشاكل صناعية وتجارية مختلفة تعيشها يوماً بيوم، وليس عن مجهول متخيل كما يفعل معظم المفكرين العرب الذين يتحدثون شفاهةً عن تجربة لم يمارسوها بعد، وعن واقع لم يعيشوه بعد، ولم يخبروه بعد الخبرة الكافية. برغم ذلك كله، فقد أصبحت العولمة حديث الصباح والمساء، كما أصبحت حديث الدواوين والمسافرين. يتداولها السامرون حول مواقد النار والكلمات ومع فناجين القهوة المُرّة. ويتخذها المسافرون زاداً للتخفيف من وعثاء السفر. فلا تفتح جريدة أو مجلة أو شاشة عربية اليوم، إلا وتقرأ وتسمع عناوين طقوسية مثيرة عن العولمة على شاكلة: "العولمة هي وحدة العالم الشرير"، " العولمة حضارة المكادو- كوكا"، "العولمة هي الهيمنة التي تدمرنا".. الخ.

العولمة كموضة ثقافية

بل إن العولمة أصبحت هذه الأيام "موضة ثقافية" تُنظَّم لها الندوات لعرض الأفكار المختلفة باحتفالية كبيرة كما تُنظَّم عروض الأزياء. كما أصبحت وسيلة للنجومية الثقافية والفكرية. فكل مثقف أو مفكر يريد أن يصبح نجم الصحافة السائر وعلَم التلفزيون الدائر، ما عليه إلا أن يتصدى للعولمة مؤيداً أو رافضاً، مادحاً أو شاتماً، شاكراً أو مستغيثاً، كما كان عليه الحال قبل سنوات بالنسبة للعلْمانية، وكما كان عليه الحال قبل ذلك بالنسبة للحداثة. وإلى هذه اللحظة، لم يأخذ الشارع العربي العولمة التي يتحدث عنها المثقفون على محمل الجد، كما لم يفهم أحد في الشارع العربي معنى العولمة التي يتحدث عنها المثقفون، ويخيفون المواطن العربي منها، وينصبون المتاريس وخطوط الدفاع الوهمية في وجهها. ويقول المفكر التونسي الحبيب الجنحاني: "إن المثقفين العرب يعيدون مرة أخرى إنتاج القضايا المطروحة في المجتمع الغربي. فقد فعلوا ذلك مع الحداثة، ومع الديمقراطية، ومع مختلف مدارس النقد الحديثة في الفنون والآداب. ففئة من المثقفين العرب أعادت الإنتاج مع محاولة النقد والتجديد، وفئات أخرى اجترت اجتراراً" (العولمة في الفكر العربي المعاصر، ص٢).

تعولمنا من دون أن ندري!

انصرف المواطن العربي عن كلام المثقفين حول العولمة، وراح يمارس نواحٍ في العولمة تخدم حياته وتيسّرها. فالمواطن العربي يمارس في حياته اليومية العولمة الاقتصادية من خلال البنك الذي يتعامل معها، ويمارس في حياته اليومية العولمة الثقافية من خلال قناة التلفزيون الفضائية التي يشاهدها كل مساء وشبكة الإنترنت التي يلجأ إليها لقراءة الصحف العربية المنوعة الكثيرة، وتسيير أعماله اليومية. وفي الواقع فإن أجزاءً كثيرة من العالم العربي بدأ العولمة في ناحية من النواحي. وبدت الدولة العربية في أحوال كثيرة نصف معولمة. وبدا العرب متعولمين اقتصادياً وثقافياً وإعلامياً وحتى اجتماعياً إلى حد ما، ولم يبقَ غير إكمال الطريق، كما لم يبقَ غير العولمة السياسية، وهي القادمة. يقول المفكر اللبناني علي حرب: "ظلت الجماهير أكثر حكمة وتعقلاً في فهم الأحداث والتعامل مع الوقائع من النُخب التي كانت تقرأ العولمة قراءة خلقية مثالية أو قراءة أيديولوجية نضالية رجعية، من خلال ثنائية الأنا والآخر، ومن خلال الحكم على ظاهرة العولمة بما قبلها." ("حديث النهايات"، ص ٢٢، ٤٦). وظلت العولمة في أذهان المثقفين مفهوماً متداولاً محصوراً خلف جدران المؤتمرات والندوات الفكرية المتخصصة. وظلت مفهوماً ذهنياً تجريدياً في نظر كثير من المفكرين العرب. ثم ما قيمة وعي المثقفين لأسرار العلاقة الطويلة بين العرب والغرب إذ لم يبلغ هذا الوعي الفئات الاجتماعية والسياسية المعنية صاحبة المصلحة في التغيير؟

لماذا نفزع من العولمة؟

وكما قابلنا الحداثة في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين بالفزع منها، وكما قابلنا العلْمانية في السبعينيات بالخوف منها والسخط عليها، وذهبنا بها مذاهب شتى، رمت دعاتها بالكفر والإلحاد والشرك برب العباد، فقد قابلنا العولمة، أو ما يُعرف بالعصر الرقمي Digital Age في نهايات القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين، بالخوف والفزع منها، والسخط عليها، ورميناها بأنها رجس من عمل الشيطان الأكبر (أمريكا). ولم تتم مناقشتها عقلياً من خلال الحقائق التاريخية والأرقام الاقتصادية. وكان هذا الفزع وهذا الخوف من كل مفهوم جديد يظهر في العالم مبعثه ازدواجية شخصية الإنسان العربي بوضعه الحالي وبثقافته المحدودة، وانغلاقه وقطيعته مع تراثه ومع العالم أيضاً، بحيث أصبح يخشى من كل جديد في الفكر، ويفزع منه، وينأى عنه. وتتجلى ازدواجية الشخصية العربية هذه في ازدواجية الفضيلة الجنسية، وازدواجية التعامل والسلوك الاجتماعي، وازدواجية لغة التعامل الاجتماعي، وازدواجية النزعة الانتقادية، وازدواجية القناع الديني، والازدواجية الحضارية، وأخيراً في ازدواجية موقفه من الغرب. فهو يقبل على منتجاته، ومعاهده، وكلياته، وأفلامه، وكتبه، وموسيقاه، وطعامه، وملبسه، ووسائل مواصلاته، ويتمتع في حياته بإنجازات الغرب التكنولوجية والعلمية، ولكنه في الوقت نفسه يقف موقف المهاجم والمداهم لكل فكر جديد، وخطوة جديدة من شأنها أن تيسّر الحياة، وتفتح لها آفاقاً جديدة.

المثقفون هم العلّة

وإذا كانت ازدواجية الشخصية العربية سبباً من أسباب فزع العرب من العولمة، فإن المثقفين العرب كانوا سبباً آخر لهذا الفزع. فقد أفزع المثقفون العرب الإنسان العربي - نتيجة لأميته الهجائية والثقافية - من العولمة، في الوقت الذي كان يمارس بعض آلياتها من حيث لا يدري من دون خوف أو جزع. فهو يتعامل مع الشركات ذات الجنسيات المتعددة، ويمارس مهماته المالية والتجارية مع بنوك ذات جنسيات متعددة، ويفتح أسواقه لمختلف جنسيات البضائع، ويرسل أولاده للتعلم في جامعات أجنبية، ويشاهد ويستمع إلى فنون مرئية وسمعية عالمية، ويستعمل شبكة الإنترنت للحصول على المعلومات اللازمة وقضاء حاجاته الاجتماعية كالزواج، والطلاق، وخلاف ذلك. ولكن المثقفين بقبليتهم ألقوا الروع في قلب الإنسان العربي. وظل هذا الفزع قائماً في العالم العربي من هذا المجهول القادم الذي نطلق عليه العولمة وذلك بفضل تحذيرات المثقفين الخائفين، وصيحات المفكرين المذعورين. وكان مبعث هذا الخوف وهذه الفزع الجهل بالشيء أولاً، علماً بأن مكونات العولمة ليست شيئاً جديداً تماماً. فالسوق معروفة من قبل، وتوسع الأسواق العالمية والتجارة الدولية عملية مستمرة لم تتوقف.

كل ما هو أمريكي مكروه

أما نحن العرب فلا نعرف عن العولمة أولاً إلا كونها عودة للاستعمار بحلة جديدة. وأنها عودة للسيطرة الغربية على الشرق. وثانياً، أنها دعوة أجنبية - من أمريكا المكروهة - بالدرجة الأولى، لعدة اعتبارات علمية وحضارية واقتصادية. وبيننا وبين أمريكا كعرب حساب طويل وعداء مستبد، بدأ منذ نصف قرن مع بداية القضية الفلسطينية وموقف أمريكا من الصراع العربي - الإسرائيلي المرير على مدار خمسين عاماً، وتورط أمريكا في العراق، كنا فيها نحارب أمريكا ونعاديها أكثر مما نحارب إسرائيل، ونعتبرها سبب كوارثنا السياسية والقومية المتلاحقة. لذا، فكل مشروع سياسي أو اقتصادي يأتي إلينا من أمريكا مصيره الرفض والمقاومة، والقذف المُسبق بشتى التهم. فلو كانت دعوة العولمة دعوة أوروبية في الدرجة الأولى، أو دعوة يابانية مثلاً، لما قوبلت بهذا الاحتجاج العريض من قبل بعض المفكرين العرب المعاصرين. ولما قوبلت بهذا الرفض والمقاومة من قبل بعض الصحافيين وكتاب الأعمدة اليومية في الصحافة العربية الذين كان لهم الكلمة الغالبة الطنّانة في هذا المصطلح الذي يُطلق عليها علماء الاقتصاد: المصطلح الطنّان الرنان Buzzword، ألا وهو العولمة.

> *كما قابلنا الحداثة في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين بالفزع منها، وكما قابلنا العَلْمانية في السبعينيات بالخوف منها والسخط عليها، وذهبنا بها مذاهب شتى، رمت دُعاتها بالكفر والإلحاد والشرك برب العباد، فقد قابلنا العولمة، أو ما يُعرف بالعصر الرقمي Digital Age في نهايات القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين، بالخوف والفزع منها، والسخط عليها، ورميناها بأنها رجس من عمل الشيطان الأكبر (أمريكا).*